بلاغة الحجاج في أسلوب عبد القاهر الجرجاني

The Rhetoric of argumentation in Abdel Qāher Al Jurjānī's style

أ.د/ أحمد عادل عبد المولى*

ahmed.abdelmawla@must.edu.eg

المستخلص

هذه دراسة تُعنى بأسلوب الشيخ عبد القاهر الجرجاني من خلال تقنية (الحجاج argumentation) البلاغية، ولأن اللغة تنوب مناب الفكر؛ جاءت الدراسة كاشفة عن فكره الحجاجي من خلال لغته وأسلوبه.

ونستطيع أن نطمئن -مما عرضناه- إلى أن الرجل قد وظّف الحجاج في كثير من بحوثه، وأن نقول إن الحجاج له صيغه الخاصة التي لا تنحصر في نمط تعبيرى بعينه، وليست وقفًا على أداة أو تركيب دون سواه، إنما يطوّف بين عدة ظواهر بلاغية وأسلوبية كالشرط، والقصر، والتوكيد، والنفي، والاستفهام... إلى غير ذلك من الأساليب التي قد تأتي على هيئتها التي نص عليها النحاة والبلاغيون في تعييدهم، وقد ترد بفحواها عبر الصيغ والتراكيب المؤدية لمعناها، فضلًا عن اتخاذ هيئة المناظرة مع الخصوم في بعض الأحيان باعتبارها ذات سمّة تداوليّة أصيلٍ في الخطاب الحجاجي.

* أستاذ الأسلوبية والنقد المقارن، وكيل كلية اللغات والترجمة بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

وعلى أي حال، فإن هذه الدراسة محاولة -أحسبها جديدة في طرحها-
لدراسة بلاغة النظم عند صاحب نظرية النظم من خلال الحجاج؛ لأننا لا نبالغ
إذا قلنا إن عبد القاهر صنع كتابه (دلائل الإعجاز) ومن قبله (أسرار البلاغة)
على سبيل التحدي مستثمرا أسلوب المحاجة للإقناع والإمتاع معا.
الكلمات المفتاحية: بلاغة ؛ حجاج ؛ الجرجاني ؛ أسلوب.

Abstract

This study is concerned with the writing style of Abdel Qāher Al Jurjānī focusing on his argumentative technique. Because of the role language plays in reflecting thought, this study aims at tracing Abdel Qāher's argumentative thought that can be easily depicted in his language and style. Through the study's argument, it is clear that Al Jurjānī has manipulated, in the majority of his work, the argumentative technique which is not limited to a single prototype; on the contrary, it moves among a variety of rhetorical and stylistic phenomena, such as conditioning, assertion, interrogation, as well as other styles that can clearly appear in its traditional form or rather be implicitly traced.

To conclude, this study is an attempt to study theory of Composing through the owner of composing through argumentation, since it is generally thought that Al Jurjānī has composed his Rhetoric Secrets as well as (Dla'l al'i'ajaz) as a form of challenge by using argumentation as a means of convincing and entertainment.

Keywords: Rhetoric, argumentation, Al Jurjānī', style.

(1)

كنت كثيرًا ما أسأل نفسي: هل يمكن أن يدرس أسلوب كتاب نقدي دراسة أسلوبية تكشف عن لغة الناقد وخصائصه التعبيرية، كما نفعل بشعر الشعراء ونثر الكتاب، وقبل كل ذلك بخصائص كتاب الله العزيز؟ لقد "تعودنا أن نبعد ما سميناه اللغة العلمية عن التحليل البلاغي، واعتقدنا أن التحليل البلاغي هو الذي يستخرج الجمال في اللغة، وهذا خطأ؛ لأن البلاغة تبحث عن المعاني، وأسرار هذه المعاني، وصور هذه المعاني، وأغوار هذه المعاني، ويكون الجمال في إلمام اللغة بهذه الصور واستقصائها لهذه الأسرار واستيعابها للدقائق، وليس الجمال تزويقًا أو تحسينًا، وإنما هو سبر أغوار الأشياء والأفكار." (1)

إن هذا البحث خطوة عمليّة في دراسة لغة العلم النقدي القديم عند واحد من أساطين الفكر البلاغي والنقدي العربي وهو الإمام عبد القاهر الجرجاني، من خلال تقنية (الحجاج).

فهذه الدراسة ليست عن تناول عبد القاهر لتقنية الحجاج في البلاغة العربية؛ بل دراسة لتقنية الحجاج في أسلوبه هو حين كان يتحمس لفكرته، داحضًا خصومه والمعارضين حتى إن كانوا خصوما افتراضيين، كان يفترض وجودهم وحججهم حتى يرد عليهم مؤكدًا فكرته منتصرًا لدليله، وهي بذلك دراسة تكشف عن رؤيته للحجاج ذاته أيضًا؛ إذ كان الوصول بالمتلقي إلى بر اليقين هو ما يتغياهم من وراء دراسته عن أسرار الإعجاز؛ مما يعني أننا أمام خطاب حجاجي - كما تسميه موسوعة البلاغة - حيث "تم التمييز بين الخطاب الحجاجي

والخطاب السردى والخطاب الوصفى والخطاب الاستعراضي، استناداً إلى حقيقة أن الخطاب الحجاجي يصنع ادعاءات للمخاطب ويسعى لتبريرها⁽²⁾.

ودراسة لغة العلماء منهج عبد القاهر نفسه، فقد أدخل كل كلام مصقول ميدان البلاغة ولو لم يكن من كلام الشعراء والأدباء، كما فعل هو مع بعض أقول سيبويه، وقد أحسن صنعاً في ذلك؛ "لأن الله سبحانه لم يجعل عذوبة اللسان وملاحظته وسلطانه على القلوب وقفاً على طائفة الشعراء وكتاب الأدب، وإنما تجد نفحة الفصاحة والبلاغة في أقلام كثيرة ليست محترفة في هذا الباب."⁽³⁾

ولا نبالغ إذا قلنا إن عبد القاهر صنع كتابه (دلائل الإعجاز) ومن قبله (أسرار البلاغة) على سبيل التحدي مستثمراً أسلوب المحاجة للإقناع والإمتاع معاً.

(2)

و(الحجاج) تقنية بلاغية قديمة، تحدث عنها أرسطو في كتابه (الخطابة)، وكان لها حضور لافت في النظر البلاغي العربي، فقد تنبه البلاغيون إلى "تقنية الحجاج، ورصدوا وظائفها الصياغية والدلالية والكلامية، كما تنبهوا إلى طبيعتها الثنائية التي تجمع بين طرفين أو أكثر يتبادلون الكلام المغلف بالمنطق تارة، وبالجمال تارة أخرى؛ ومن ثمَّ استحدثوا أشكالاً بلاغية تنتمي إلى دائرة (الحجاج)⁽⁴⁾، كالأسلوب الحكيم، والاستدراج، ولا سيما تحت ما أسموه المذهب الكلامي الذي صار من المحسنات المعنوية على يد السكاكي، في حين عدّه السبكي من علم المعاني؛ لكونه تطبيقاً للكلام على مقتضى الحال.

وقد عرّفه ابن أبي الإصبع المصري بأنه "احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه."⁽⁵⁾

ويعرّف معجم مصطلحات الأدب الصادر عن مجمع اللغة العربية (الحجاج *argumentation*) بأنه "وسيلة من وسائل بناء الخطاب تستفيد من علوم البلاغة، واللغة، والمنطق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع. وهي تقنية تهدف إلى دفع المتلقي للقيام بفعل ما، أو التأثير في آرائه أو أحكامه أو مشاعره بواسطة البرهان الجمالي..."⁽⁶⁾

(3)

لجأ عبد القاهر إلى عدة وسائل لغوية توّسل بها إلى بناء الخطاب الحجاجي في كتابيه الأسرار والدلائل، وكذلك في الرسالة الشافية، ولا سيما في أثناء حديثه عن نظريته (النظم).

وحري بعبد القاهر أن يكون الحجاج من أهم سمات عقليته العلميّة، فهو إلى جانب كونه بلاغيًا ونحويًا كبيرًا، فهو "متكلم أشعري استغل كل ثقافته الكلامية المنطقية في وضع نظريته البلاغية في صيغتها العلمية المكتملة، وهو ناقد أدبي يتمتع بذوق أدبي بالغ الرهافة والشفافية ساعده على تلمس جوانب الجمال الفني في النص الأدبي، وعلى بلورة هذه الجوانب في نظرية بلاغية بارعة، وأخيرًا فهو قد اطلع على طرف من الثقافة اليونانية، سواء عن طريق بعض ترجمات كتابي أرسطو "فن الشعر"، و"الخطابة"، أو عن طريق تلخيص بعض الفلاسفة المسلمين -كابن سينا- لخطابة أرسطو"⁽⁷⁾؛ لذلك بدا واضحًا في أسلوبه السميت الحجاجي الذي اتخذ عدة صور، كما سنرى.

ويمكننا أن نلاحظ بناء الخطاب الحجاجي عنده على المستويين الإفرادي والتركيبى، فعلى المستوى الإفرادى نجد احتفال أسلوب عبد القاهر بدوال الحجاج مثل: (خصم - اعترض - احتجاج - المحاجة - الحجة - البرهان - دليل - اليقين)، ودوال لسياق إفحام الخصم، مثل: (خرس - عدم - نطق - عجز - أخذ عليه - داء - علة - مرض - شفاء - علاج - صحة - ضلال - هيهات - بُعد)، ودوال لسياق إثبات الحجة مثل: (ينبغي - يجب - يستقصي - التأمل - النظر - أودعنا - الطريق إلى - الرد على - نجيب - نرد).

أما على المستوى التركيبى فنجد استثمار أساليب مثل (الشرط، والقصر، والتكرار، والاستفهام، والنفي، والتوكيد، والعطف) في الاستدلال الاحتجاجي. واللافت في أسلوب عبد القاهر أن هذه الأساليب تتواشج ويختلط بعضها ببعض، فلا نستطيع الفصل بينها، والحديث عن كل أسلوب مفردًا، هذا فضلا عن زرع الدوال الإفرادية السابق ذكرها في تربة الخطاب الحجاجي. ولذلك سيكون التعامل مع بعض نصوص مختارة من كلام عبد القاهر، أو لنقل إبداعه النقديّ في كلامه حول الكلام.

(4)

لقد كان الوصول إلى اليقين، وهو الغاية الكبرى من الحجاج، هو شغل الإمام الشاغل، وهو أمر يمكننا أن نلمسه في أسلوبه من أول خطبته لكتابه (دلائل الإعجاز)؛ إذ نراه في هذه الخطبة يتوجه إلى الله - بعد حمده والثناء عليه - بالدعاء أن يكفيه نوائب الزمان، ونوازل الحدثان، ويرغب إليه في التوفيق

والعصمة، ويبرأ إليه من الحول والقوة، ويسأله "يقيناً يملأ الصدر، ويعمر القلب، ويستولي على النفس؛ حتى يكفها إذا نرغت، ويردّها إذا تطلّعت..."

وحين نتأمل ما يرجوه من ربّه، وما يعوذ به منه، نجده يتابع مسألتة:

"وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ هُمُّهُ الصِّدْقُ، وَبُغْيَتُهُ الْحَقُّ، وَغَرَضُهُ الصَّوَابُ، وَمَا تُصَحِّحُهُ الْعُقُولُ وَتُقْبِلُهُ الْأَلْبَابُ، وَنَعُوذُ بِهِ مَنْ أَنْ نَدَّعِيَ الْعِلْمَ بِشَيْءٍ لَا نَعْلَمُهُ، وَأَنْ نُسَدِّيَ قَوْلًا لَا نُلْحِمُهُ، وَأَنْ نَكُونَ مِمَّنْ يَغُرُّهُ الْكَاذِبُ مِنَ الثَّنَاءِ، وَيَتَخَدَّعَ لِلْمَتَجَوِّزِ فِي الْإِطْرَاءِ، وَأَنْ يَكُونَ سَبِيلُنَا سَبِيلَ مَنْ يُعْجِبُهُ أَنْ يُجَادَلَ بِالْبَاطِلِ، وَيُؤْمَرَهُ عَلَى السَّمْعِ، وَلَا يَبَالِي إِذَا رَاجَ عَنْهُ الْقَوْلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَطَ فِيهِ، وَلَمْ يُسَدِّدْ فِي مَعَانِيهِ."

فحين نتأمل هذا الخطاب المشتمل على نهج في الدعاء الذي هو أحد أساليب الإنشاء، نجده استثمر (العطف بالواو) ليعدد صفات اليقين، ونعوت من يرغب أن يكون منهم، والأفعال المستعاذ منها. وتتجلى بلاغة العطف في كونها ذات حركة رأسية "تتمثل في انضمام عنصرين أو أكثر إلى بعضهما، بحيث تتمحور الدلالة في نقطة معينة ثم تزداد أبعادها"⁽⁸⁾، واللافت هنا أنه نوع في أسلوب هذه الجمل المعطوفة، ففي طلب اليقين نعتة بجمل فعلية: (يملاً الصدر، ويعمر القلب...)، أما في طلبه أن يجعله الله من طائفة تتسم بصفات إيجابية، كان استعماله للجمل الاسمية: (هَمُّهُ الصِّدْقُ، وَبُغْيَتُهُ الْحَقُّ...)، وأما في تعوذه فاستعمل المصدر المؤول: (وَنَعُوذُ بِهِ مَنْ أَنْ نَدَّعِيَ الْعِلْمَ بِشَيْءٍ لَا نَعْلَمُهُ، وَأَنْ نُسَدِّيَ قَوْلًا لَا نُلْحِمُهُ...) ونستطيع أن نقول إن تركيب المصدر المؤول (أن) والمركب الفعلي له خصوصية في أنه يقع في منطقة وسطى دلاليًا بين الاسمية

والفعلية؛ إذ تتحول الجملة الفعلية في البنية العميقة إلى اسم مفرد، كما أنه "من المعلوم أن المصدر الصريح ... لا يدل على زمن مطلقاً، وكذلك المصدر المؤول الذي يكون نتيجة سبك الحرف المصدرى وصلته؛ فإنه -وقد صار مصدرًا- لا يدل بنفسه على زمن مطلقاً. ولكن تبقى الدلالة على الزمن ملحوظة، ومستفادة من العبارة الأصلية التي سبك منها؛ فكأنه يحمل في طيه الزمن الذي كان في تلك العبارة قبل السبك." (9)

ومن المعلوم كذلك أن دخول (أن) على المضارع يحوّل زمنه من الحال إلى الاستقبال، وهو ما ناسب افتتاح الكتاب لكل ما سيأتي ذكره بعد. وكأنه بذلك التنوع الأسلوبي بينما يريد أن يكون اليقين مستمرا متجددا فاستخدم الجمل الفعلية؛ يرغب في أن تتمتع ذاته بمواصفات ثابتة مستقرة في شخصيته فاستعمل الجمل الاسمية، وحين استعاذ من أمور مستقبلية، احتاج إلى صيغة تجمع بين الاسمية والفعلية، فكان الاختيار الأسلوبي للمصدر المؤول؛ حتى يصرف عنه بالكلية موبقات الجهل، ومغبة المجادلة بالباطل، فلا تكون من سمات الذات أو ممارسات الفعل في الزمن المستقبل. وبذلك ينتصر الشيخ باللغة وتقنها الأسلوبية على ذوي اللّجج بالأدلة والحجج.

(5)

إن استحضار المتلقي كان من الأمور المهمة التي حرص عليها الشيخ في أسلوبه. فنراه يقول في التمهيد عن الكلام في إعجاز القرآن: "وجملة ما أردت أن أبينه لك: أنه لا بدّ لكلّ كلامٍ تستحسّنه، ولفظٍ تستجيده، من أن يكون

لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعينا من ذلك دليل.

وهو باب من العلم إذا أنت فتحتَه اطلعت منه على فوائد جليّة، ومعانٍ شريفة، ورأيت له أثرًا في الدين عظيمًا وفائدة جسيمة، ووجدته سببًا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخل فيما يتعلق بالتأويل، وإنه ليؤمنك من أن تغالط في دعواك، وتدافع عن مغزائك، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهدي إليه، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه، وأن تكون عالمًا في ظاهر مقلد، ومستبينًا في صورة شاك، وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك، فلا ينصرف عنك بمقنع وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه، وتقول: قد نظرتُ رأيته فضلًا ومزيةً، وصادفتُ لذلك أريحه، فانظر لتعرف كما عرفت، وراجع نفسك، واسبر وذق، لتجد مثل الذي وجدت، فإن عرف فذاك، وإلا فبينكما التناكر، تنسبه إلى سوء التأمل، وينسبك إلى فساد في التخيّل.⁽¹⁰⁾

فبالنظر إلى هذا النص نجده أولاً قد استحضر المتلقي إلى رحاب الصياغة متوجهًا بالحديث إليه: (وجملة ما أردت أن أبينه لك)؛ مما يعني اهتمام الشيخ الإمام بحضور الطرف الآخر، فقد كان بإمكانه أن يقول: (وجملة ما أردت أن أبينه... كذا وكذا)، ولكنه أثر كاف الخطاب، وتاء المضارع من السوابق، وتاء الفاعل من اللواحق؛ حتى يشارك المتلقي في التصور الموضوع. "لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة".

ثم يأتي بذكر سر الاستحسان بانتقاء دوال (جهة معلومة وعلة معقولة) من معجم الاحتجاج، ولا يخفى كون الجهة المعلومة والعلة المعقولة من سبل البرهان في الاستدلال الذي يتأكد بقوله عقبها: "وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل". فيصير (دليل صحة الادعاء) مناط الإقناع بالحكم.

ثم تأتي بنية الشرط، وهي بنية مهمة في الخطاب الحجاجي؛ ذلك لأن السبك فيها متكئ على علاقة الترتب العلية بين جملتيها؛ مما يسهم في إقناع المتلقي من جزاء الترابط المنطقي بين الشرط وجزائه.

ولا نجانب الصواب إن قلنا إن التركيب الشرطي الآتي بعد ذلك في قوله: "وهو باب من العلم إذا أنت فتحتَه اطلعت منه على فوائد جلية..." اتسع ليشمل أمورًا كثيرة عبر تقنية العطف على جواب الشرط كما هو مبين بالنص من رؤية الأثر العظيم في الدين، وحسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل في التأويل، والأمن من مخالطة الدعوى، والدفاع عن المغزي، والربأ عن عدم الهداية، وفقد الاستدلال، وكذل الأمن من سؤال السائل عن حجة يلقي بها الخصم في آية من كتاب الله، فلا ينصرف بمقنع...

وفي عطف كل هذه الأمور ما يعزز إقناع المتلقي بأهمية هذا الباب من العلم، لا سيما بعد أن توجهت الصياغة إليه مباشرة بضميره: "إذا أنت فتحتَه اطلعت..." وغني عن البيان أن إنتاج اليقين عبر بنية الشرط بدأ من اسم الشرط الظرفي (إذا) الذي يفيد اليقين، وهو المتعلق بجوابه -كما يقول النحاة

والمعربون- فيكون التعلّق اليقينيّ باطلاع المخاطّب على فوائد جليّة ومعان شريفة وقتّ فتح هذا الباب من العلم.

(6)

لقد كان عبد القاهر شغفًا بوضوح المعرفة في ذهن المتلقي، وهذا لا يتأتى إلا بحجة يقينية تدفع عنه الارتياح، وترفع عنه اللبس والغموض. يقول: "ثم إن التوق إلى أن تقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يُشكل، وحلّ ما يُعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقةً بالحجة، واستظهارًا على الشبهة، واستبانة للدليل، وتبيينًا للسبيل، شيء في سوس العقل، وفي طباع النفس إذا كانت نفسًا." (11)

فإذا كان هذا النص يحرص على إزالة الغموض المعرفي، فإنه يوجب أيضًا "أن تكون كل حقيقة من حقائق المعرفة لها برهان يؤكددها، وحجة تستظر بها، وأن يكون حملة العلم مقتنعين بمسائله، وقادرين على الإقناع بها..." (12) وأول ما نلاحظه هنا استخدام الخطاب الجمل الاسمية المؤكدة ليرسي قاعدة للجلاء المعرفي، ثم العطف على الجملة الابتدائية، وتأخير الخبر، فلم يأت إلا بعد ثمان جمل فاصلة بينه وبين المبتدأ، وفي هذا التأخير من التشويق ما فيه، فضلًا عن اشتراك هذه المعطوفات التي تعد من المبتدأ دلالة في الحكم بأنها (شيء في سوس العقل، وفي طباع النفس إذا كانت نفسًا)، ولنتأمل هذا القيد الشرطي المحتمل الأخير (إذا كانت نفسًا)، أي إن كانت بالفعل نفسًا متذوقة

عاقلة تائقة للحقّ، ووضع الأمور في نصابها؛ ولذلك نجد أن الجملة الابتدائية وما عطف عليها من جمل ترسخ الأسس الاحتجاجية المقنعة، وهي:
(قرار الأمور قرارها، ووضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتخليص الصفة) فتكون غايتها: (حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهاراً على الشبهة، واستبانة للدليل، وتبييناً للسبيل).

(7)

ويبلغ الخطاب الحجاجي ذروته حين يكون محور الحديث هو الإقناع والوصول بالمتلقي إلى اليقين، ولنتأمل هذا النص البديع له:

"واعلم أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مجملًا، إلى العلم به مفصّلًا، وحتى لا يُفنعك إلاّ النظر في زواياه، والتغلغل في مكانه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرّف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يُصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى غروقي الشجر الذي هو منه، وإنّا لنراهم يقيسون الكلام في معنى المعارضة على الأعمال الصناعية، كنسج الديباج وصوغ الشنف والسوار وأنواع ما يُصاغ، وكلّ ما هو صنعة وعمل يدٍ، بعد أن يبلغ مبلغًا يقع التفاضل فيه، ثم يعظم حتى يزيد فيه الصانع على الصانع زيادة يكون له بها صيتٌ، ويدخل في حدّ ما يعجز عنه الأكثرون...

وليس يتصوّر مثل ذلك في الكلام؛ لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر، أو فصل من النثر، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصفته

بعبارة أخرى، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك، لا يُخالِفُه في صِفَةٍ ولا وَجْهٍ ولا أَمْرٍ من الأمور. ⁽¹³⁾

ويبدأ الخطاب هنا بفعل الأمر (اعلم) الذي يستحضر المتلقي بالقوة إلى رحاب الصياغة لطلب العلم، واللافت أن الخبر في مفعوله المصدر المؤول (أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين) جاء جملة فعلية منفية وكذلك المعطوفة عليها، ولكن هذا النفي مرهون بغايته، فأتى بـ(حتى) التي تفيد الغاية التي بها يصل المتلقي إلى شفاء الغلة وثلج اليقين، وهي: تجاوز العلم مجملاً إلى العلم به مفصلاً، ثم يتحول مسار الدلالة من النفي إلى التأكيد الحاصر عبر تقنية القصر مع (إلا): (وحتى لا يُقْنِعَكَ إِلَّا النَّظَرُ فِي زَوَايَاهُ، وَالتَّغْلُغُ فِي مَكَامِنِهِ)، فيتخصص الإقناع بالنظر في زوايا العلم، والتغلغل في مكانه.

ولكي يزيد الفكرة تأكيداً أتى بالتنشبيه التمثيلي بمن "تَتَّبِعَ الْمَاءَ حَتَّى عَرَفَ مُنْبَعَهُ، وَانْتَهَى فِي الْبَحْثِ عَنْ جَوْهَرِ الْعُودِ الَّذِي يُصْنَعُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ مُنْبَتَّهُ، وَمَجَرَى غُرُوقِ الشَّجَرِ، الَّذِي هُوَ مِنْهُ."

كل ذلك يضعه الخطاب الحجاجي عند عبد القاهر بين يديّ دحض رأي من يقيس صنعة الكلام على سائر الصناعات؛ لذلك يأتي بالنهي فيقول: "وَلَا يَعْرِزَنَّ قَوْلُ النَّاسِ: "قَدْ أَتَى بِالْمَعْنَى بَعِينَهُ، وَأَخَذَ مَعْنَى كَلَامِهِ فَأَدَّاهُ عَلَى وَجْهِهِ"، فَإِنَّهُ تَسَامَحٌ مِنْهُمْ، وَالْمَرَادُ أَنَّهُ أَدَّى الْغَرَضَ، فَأَمَّا أَنْ يُوَدِّيَ الْمَعْنَى بَعِينَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ فِي كَلَامِ الْأَوَّلِ، حَتَّى لَا تَغْلِلَ هُنَا إِلَّا مَا عَقَّلْتَهُ هُنَاكَ، وَحَتَّى يَكُونَ حَالُهُمَا فِي نَفْسِكَ حَالِ الصَّوْرَتَيْنِ الْمُشْتَبِهَتَيْنِ فِي

عينك كالسوارَيْن والشَّنَقَيْن، ففي غاية الإحالة، وظنُّ يُفْضي بصاحبه إلى
جهالةٍ عظيمةٍ..."

وعلى ذلك يؤسس الجرجاني لنظريته في النظم بناءً حجاجيًا محكمًا
ومنوعًا في خصائصه التعبيرية بين الشرط، والقصر والأمر والنهي.

(8)

ومن الصيغ التعبيرية التي لجأ إليها الجرجاني تركيبه الشرطي: "وإذا
كان ذلك كذلك..." وما شابهه، وميزة هذا التركيب أنه يعتمد مبدأ السببية وسيلة
للاستدلال المنطقي؛ حيث تقضي المقدمة إلى نتيجة.

ولنتأمل هذا النص الحوار الحجاجي في الرسالة الشافية:

"وإن قالوا: فإن ههنا أمرًا آخر، وهو ما علمنا من تقديمهم شعراء
الجاهلية على أنفسهم، وإقرارهم لهم بالفضل، وإجماعهم في امرئ القيس
وزهير والنابعة والأعشى أنهم أشعر العرب. وإذا كان ذلك كذلك، فمن أين لنا
أن نعلم أنهم لم يكونوا بحيث لو تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها
واستطاعوها؟ قيل لهم: هذا الفصل على ما فيه لا يقدر في موضع الحجة؛
وذلك أنهم كانوا، كما لا يخفى، يروون أشعار الجاهليين وخطبهم، ويعرفون
مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تُشكّل جهات الفضل عليه، فلو كانوا يرون
فيما رويوا وحفظوا مزية على القرآن، أو رأوه قريبًا منه، أو بحيث يجوز أن
يعارض بمثله، أو يقع لهم إذا قاسوا أو وازنوا أن هذا الذي تحدوا إلى
معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، لكانوا يدعون
ذلك ويذكرونه، ولو ذكروه لذكر عنهم. ومحال إذا رجعنا إلى أنفسنا واستشفنا

حال الناس فيما جبلوا عليه أن يكونوا قد عرفوا لما تحدوا إليه وفرعوا بالعجز عنه شبهًا ونظمًا، ثم يتلى عليهم: {قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88]، فلا يزدون في جوابه على الصمت، ولا يقولون: "لقد رويانا لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصر [عما] أتيت به، فمن أين استجرت أن تدعي هذه الدعوى؟" (14)

ونلاحظ هنا أن الجرجاني جرد من ذاته خصمًا متحاورًا يحاجبه في أمر معارضة القرآن، فقابل بين أسلوب الخصم في طرح الشبهة، والرد عليه، فحين بدأ السياق بالشرط الافتراضي: "وإن قالوا"، قابله في الجواب بقوله: "قليل لهم"، وحين اختتم ادعاء الخصم بقوله: "وإذا كان ذلك كذلك، فمن أين لنا..."، قابله في نهاية رده باستفهام مسكت، فقال: "فمن أين استجرت أن تدعي هذه الدعوى؟"

كما أن بناء الحجاج الجرجاني كان يعتمد القطع في بطلان الحجة أولاً: "هذا الفصل على ما فيه لا يقدر في موضع الحجة"، ثم تفصيل حيثيات البطلان بعد ذلك: "وذلك أنهم..."

وإذا كان هذا التركيب الشرطي، أعني "إذا كان ذلك كذلك..." قد جاء على لسان الخصم؛ فإنه قد جاء على لسان المفند في غير سياق، من ذلك حديثه عن (همزة الاستفهام):

"وجملة الأمر، أنَّ المعنى في إدخالك "حرف الاستفهام" على الجملة من الكلام، وهو أنك تطلب أن يَقيِّفَكَ في معنى تلك الجملة ومَوَدَّها على إثبات أو نفي. فإذا قلت: "أزيدُ منطلق؟"، فأنت تطلب أن يقول لك: "نعم، هو منطلق" أو يقول: "لا، ما هو منطلق". وإذا كان ذلك كذلك، كان مُحالاً أن تكون الجملة إذا دخلتها همزة الاستفهام استخباراً عن المعنى على وجه، لا تكون هي إذا نُزِعَتْ منها الهمزة إخباراً به على ذلك الوجه، فاعرفه."⁽¹⁵⁾

فكانت الحجة المقنعة في هذا النص نابعة من أن جواب شرط (إذا) هنا كان النفي المستقى من الدال (محالاً) بأن دلالة الجملة إذا دخلتها همزة الاستفهام كدلالتها إذا حذفت منها.

وفي باب اللفظ والنظم بيان في استعمال اللفظ والمراد به دلالة المعنى على المعنى، يقول: "وَمِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَجِدُهُمْ يُجْرُونَهَا عَلَى "اللفظ"، ثُمَّ لَا تَعْتَرِضُكَ شُبْهَةٌ وَلَا يَكُونُ مِنْكَ تَوَقُّفٌ فِي أَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ، وَلَكِنْ لِمَعْنَاهُ، قَوْلُهُمْ: "لَا يَكُونُ الْكَلَامُ يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْبَلَاغَةِ حَتَّى يُسَابِقَ مَعْنَاهُ لَفْظُهُ، وَلَفْظُهُ مَعْنَاهُ، وَلَا يَكُونُ لَفْظُهُ أَسْبَقَ إِلَى سَمْعِكَ مِنْ مَعْنَاهُ إِلَى قَلْبِكَ" وقولهم: "يدخل في الأذن بلا إذن"، فهذا مما لَا يَشْكُ الْعَاقِلُ فِي أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى دَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَى الْمَعْنَى، وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُرَادَ بِهِ دَلَالَةُ الْلفظِ عَلَى مَعْنَاهُ الَّذِي وُضِعَ لَهُ فِي اللُّغَةِ...

وإذا كان ذلك كذلك، عَلِمَ عِلْمَ الضَّرُورَةِ أَنَّ مُصْرِفَ ذَلِكَ إِلَى دَلَالَاتِ الْمَعْنَى عَلَى الْمَعْنَى، وَأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ مِنْ شَرْطِ الْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ الَّذِي تَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي وَوَسِيطًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، مَتَمَكِّنًا فِي دَلَالَتِهِ،

مستقلًا بوساطته، يَسْفُرُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَحْسَنَ سِفَارَةٍ، وَيُشِيرُ لَكَ إِلَيْهِ أَبَيِّنَ
إِشَارَةٍ..."(16)

وبدا الاحتجاج هنا عبر تقنيتي النفي والإثبات، فبعد أن ذكر أن "هذا
مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصور
أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الوضعي...
أثبت بأنه علم علم الضرورة أن مصرف ذلك إلى دلالات المعاني على
المعاني... " ولا يخفى ما في ذلك التنوع الأسلوبي من تأزر في إنتاج دلالة
التوكيد.

(9)

وإذا عدنا إلى أول فصول دلائل الإعجاز نجد (مناظرات حجاجية) بين
الجرجاني ومن ذم علم البيان والشعر والنحو، حيث يعرض حججهم، ويقوم
بتفنيدها والرد عليها، ونحن هنا لسنا أمام مناظرة افتراضية، بل مناظرة حقيقية،
أحضر فيها الجرجاني الخصوم، حيث يسوق كلامهم بكل أدلته الحجاجية
الواهية، ثم يردها،

ويمكننا أن نعيد قراءة الخطاب على هذا النحو:

-[الادعاء]:-

"ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخُ أصلاً، وأبسقُ فرعاً، وأحلى جنىً، وأعذبُ
ورداً، وأكرمُ نتاجاً، وأنورُ سراجاً، من علم البيان... إلا أنك لن ترى على ذلك
نوعاً من العلم قد لقي من الضئيم ما لقيته، ومُنِي مِنَ الْحَيْفِ بِمَا مُنِي بِهِ،

وَدَخَلَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْغَلَطِ فِي مَعْنَاهُ مَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَقَدْ سَبَقَتْ إِلَى
نُفُوسِهِمْ اعْتِقَادَاتٌ فَاسِدَةٌ وَظَنُونٌ رَدِيَّةٌ، وَرَكِبَهُمْ فِيهِ جَهْلٌ عَظِيمٌ وَخَطَأٌ فَاحِشٌ.

-[الاثهام]:

"تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يَرَى لَهُ [أي للبيان] مَعْنَى أَكْثَرَ مِمَّا يَرَى لِلإِشَارَةِ
بِالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، وَمَا يَجِدُهُ لِلْخَطِّ وَالْعَقْدِ...

-[الدفاع]:

"لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَهُنَا دَقَائِقَ وَأَسْرَارًا طَرِيقَ الْعِلْمِ بِهَا الرُّوِيَّةُ وَالْفِكْرُ، وَلَطَائِفَ
مُسْتَقَاهَا الْعَقْلُ، وَخَصَائِصَ مَعَانٍ يَنْفَرِدُ بِهَا قَوْمٌ قَدْ هَدُّوا إِلَيْهَا، وَدُلُّوا عَلَيْهَا،
وَكُشِفَ لَهُمْ عَنْهَا، وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، وَأَنَّهَا السَّبَبُ فِي أَنْ عَرَضَتْ
الْمِزِيَّةُ فِي الْكَلَامِ، وَوَجِبَ أَنْ يَفْضَلَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَنْ يَبْعَدَ الشَّأُ فِي ذَلِكَ،
وَتَمْتَدَّ الْغَايَةُ، وَيَعْلُوَ الْمُرْتَقَى، وَيَعَزَّ الْمَطْلُبُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ إِلَى الْإِعْجَازِ،
وَالِى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ طَوْقِ الْبَشَرِ.

-[الاثهام]:

وَلَمَّا لَمْ تَعْرِفْ هَذِهِ الطَّائِفَةَ [يقصد منكري فضل البيان] هَذِهِ الدَّقَائِقُ،
وَهَذِهِ الْخَوَاصُّ وَاللَّطَائِفُ، لَمْ تَتَعَرَّضْ لَهَا وَلَمْ تَطْلُبْهَا، ثُمَّ عَنَّ لَهَا بِسُوءِ الْإِتْفَاقِ
رَأْيِي صَارَ حِجَازًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَسَدًّا دُونَ أَنْ تَصَلَ إِلَيْهَا وَهُوَ أَنَّ سَاءَ
اعْتِقَادُهَا فِي الشَّعْرِ الَّذِي هُوَ مَعْدِنُهَا، وَعَلَيْهِ الْمَعْوَلُ فِيهَا، وَفِي عِلْمِ الْإِعْرَابِ
الَّذِي هُوَ لَهَا كَالنَّاسِبِ الَّذِي يَنْمِيهَا إِلَى أَصُولِهَا، وَيُبَيِّنُ فَاضِلَهَا مِنْ
مَفْضُولِهَا...

"أما الشعرُ فَخُيِّلَ إليها أنه ليس فيه كثيرُ طائلٍ، وأن ليس إلا مُنْحَةً أو فكاهاة، أو بكاءً منزلٍ أو وصفَ طللٍ، أو نغثَ ناقةٍ أو جملٍ، أو إسرافَ قولٍ في مدحٍ أو هجاءٍ، وأنه ليس بشيءٍ تَمَسُّ الحاجةُ إليه في صلاحِ دينٍ أو دنيا.

وأما النَّحْوُ، فَظَنَّهُ ضَرْبًا مِنَ التَّكْلُفِ، وبَابًا مِنَ التَّعَسُّفِ، وشَيْئًا لَا يَسْتَنْدِ إِلَى أَصْلٍ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِيهِ عَلَى عَقْلِ، وَأَنَّ مَا زَادَ مِنْهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِمَّا تَجَدَّه فِي الْمَبَادِئِ، فَهُوَ فَضْلٌ لَا يُجْدِي نَفْعًا، وَلَا تَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى فَائِدَةٍ، وَضَرَبُوا لَهُ الْمَثَلَ بِالْمِلْحِ كَمَا عَرَفَتْ إِلَى أَشْبَاهِ لِهَذِهِ الظَّنُونِ فِي الْقَبِيلَيْنِ، وَآرَاءٍ...

-[الدفاع]:

"لو عِلِّمُوا مَغَبَّتَهَا وَمَا تَقَوَّدُ إِلَيْهِ، لَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْهَا، وَلَانْفَقُوا لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ الرِّضَا بِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ بِإِثَارِهِمُ الْجَهْلَ بِذَلِكَ عَلَى الْعِلْمِ؛ فِي مَعْنَى الصَّادِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُبْتَغِي إِطْفَاءَ نَوْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وذاك أَنَّا إِذَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْجَهَّةَ الَّتِي مِنْهَا قَامَتِ الْحُجَّةُ بِالْقُرْآنِ وَظَهَرَتْ، وَبَانَتْ وَبَهَرَتْ، هِيَ أَنْ كَانَ عَلَى حَدٍّ مِنَ الْفَصَاحَةِ تَقْصُرُ عَنْهُ قُوَى الْبَشَرِ، وَمُنْتَهِيًّا إِلَى غَايَةٍ لَا يُطَمَّحُ إِلَيْهَا بِالْفِكْرِ، وَكَانَ مُحَالًا أَنْ يَعْرِفَ كَوْنَهُ كَذَلِكَ، إِلَّا مَنْ عَرَفَ الشَّعْرَ الَّذِي هُوَ دِيْوَانُ الْعَرَبِ، وَعِنَاؤُ الْآدَبِ، وَالَّذِي لَا يُشْكُ أَنَّهُ كَانَ مِيدَانَ الْقَوْمِ إِذَا تَجَارَوْا فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ، وَتَنَارَعُوا فِيهِمَا قَصَبَ الرَّهَانِ، ثُمَّ بَحَثَ عَنِ الْعِلَلِ الَّتِي بِهَا كَانَ التَّبَايُنُ فِي الْفَضْلِ، وَزَادَ بَعْضُ الشَّعْرِ عَلَى بَعْضٍ = كَانَ الصَّادُّ عَنْ ذَلِكَ صَادًّا عَنْ أَنْ تُعْرَفَ حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ مِثْلُهُ

مَثَلٌ مَن يَتَصَدَّى لِلنَّاسِ فَيَمْنَعُهُمْ عَن أَنْ يَحْفَظُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَقُومُوا بِهِ وَيَتْلُوهُ وَيَقْرَأُوهُ... ذَاكَ لِأَنَّا لَمْ نَتَعَبَّدْ بِتِلَاوَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَالْقِيَامِ بِأَدَاءِ لَفْظِهِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَحِرَاسَتِهِ مَن أَنْ يُغَيَّرَ وَيُبَدَّلَ؛ إِلَّا لَتَكُونَ الْحُجَّةُ بِهِ قَائِمَةً عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، تُعَرِّفُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَيَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا فِي كُلِّ أَوَانٍ..."⁽¹⁷⁾

وإن كان من تعليق على أسلوب هذه المناظرة، فإننا نرى أن الخطاب قابل بين مزية علم البيان ودرجة الظلم الواقع عليه، من خلال نفي الرؤية التي بمعنى العلم:

"إِنَّكَ لَا تَرَى عِلْمًا هُوَ أَرْسَخُ أَصْلًا... مِنْ عِلْمِ الْبَيَانِ..."

إِلَّا أَنَّكَ لَنْ تَرَى عَلَى ذَلِكَ نَوْعًا مِنَ الْعِلْمِ قَدْ لَقِيَ مِنَ الضَّمِّ مَا لَقِيَهُ...

ونستطيع أن نتلمس فداحة الظلم من الحرف (لن) في الجملة الأخيرة؛ لأنه دالٌّ على التأبيد، فكأنه لا يتصور أن يكون هناك ظلم يقع على علم مثل الظلم الذي وقع على علم البيان.

وعبر بنية النفي أيضًا جنح الخطاب إلى التقليل من حجج الخصوم حينًا؛ حيث نفى عنهم الرؤية لمعنى علم البيان، والعلم بمعناه وأسراره، وكذلك المعرفة بخواصه والتعرض لها.

وحيثًا آخر عبر إثبات النقص في التصور باستخدام أفعال مثل: خُيِّلَ إِلَيْهَا، فَظَنَّتْهُ، وَضَرَبُوا لَهُ الْمَثَلَ... وبذلك استخدم أسلوبين بينما يتقابلان في حركة المعنى سطحيًا، يلتقيان في الناتج الدلالي عمقًا.

وأما في الدفاع فلجأ إلى الإِعْلَاءِ مِنْ قِيَمَةِ الْعِلْمِ الَّذِي جَعَلَهُ الشَّرْطَ الْوَحِيدَ لِلْحُكْمِ الصَّحِيحِ: "لَوْ عَلِمُوا مَغَبَّتَهَا..." - "إِذَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْجَهَةَ الَّتِي

منها قامتِ الحجةُ بالقرآن..."، ويستأنس بالاستثناء المفرغ لتحديد وحصر مواصفات أهل العلم المطلوب: " كان مُحالاً أن يعرف كونه كذلك، إلا مَنْ عَرَفَ الشعرَ..."، وبيان الغاية من وراء التلاوة والحفظ، وهي إقامة الحجة به: "ذاك لأننا لم نتعبد بتلاوته... إلا لتكون الحجة به قائمة على وجه الدهر..."

(10)

إن البحث في العلة والأسباب وراء الظواهر من أهم خصائص الخطاب الحجاجي، ونظفر بشيء من ذلك في حديث الجرجاني عن (التمثيل) وبيان أثره البلاغي، ولماذا تأنس به النفوس، إذ يقول:

" فهذه جملة من القول تُخبر عن صيغ (التمثيل)، وتُخبر عن حال المعنى معه. فأما القول في العلة والسبب، لِمَ كان للتمثيل هذا التأثير؟ وبيان جهته ومآتاه، وما الذي أوجبه واقتضاه، فغيرها.

وإذا بحثنا عن ذلك، وجدنا له أسباباً وعللاً، كلٌّ منها يقتضي أن يفحّم المعنى بالتمثيل، وينبئ ويشرف ويكمل.

فأول ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ، وأن تردّها في الشيء تُعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقّتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ

الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: "ليس الخبرُ كالمُعينة"، و"لا الظنُّ كاليقين"؛
فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأُنس؛ أعني الأُنس من جهة الاستحكام والقوة،
وضرب آخر من الأُنس، وهو ما يوجبهُ تقدُّمُ الإنْف، كما قيل: "مَا الْحُبُّ إِلَّا
لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ".⁽¹⁸⁾

لقد اهتَمَّ الخطاب هنا بلمح تداوليٍّ مهم، وهو الأثر النفسي لدى المتلقي
ورد فعله، "وحضور الجانب النفسي للمتلقي يتيح تقييم الخطاب الأدبي بالنظر
في ردود الفعل عنده، فهي بمثابة اللوحة المتذبذبة التي ترتفع أو تهبط تبعاً
للدبذبات الدلالية الموجهة إليها من الخطاب، وما فيه من بنى بلاغية، كبنية
(التمثيل)...

ولا تتحقق أهمية هذه البنية إلا بقياس أثرها، مع تحليل هذا التأثير، وبيان
جهته ومآتاه، فهو تأثير عن وعي، لا مجرد انفجارات عاطفية طائشة، وتأثير
معلّل، لا مجرد استجابة عمياء...⁽¹⁹⁾

وبناء الأسلوب في بيان الأسباب والعلل هنا اعتمد مجموعة من الجمل
الخبرية المؤكدة: "أَنَّ أُنْسَ النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى
جليٍّ... لأن العلم المستفاد من طرق الحواس...".

وهنا نلمح ما يمكن أن نطلق عليه (القصر المعنوي) إن جاز استخدام
هذا التعبير واستحدثه، وهو المستقى من التركيب (موقوف على)، وكأنه في
معنى: لا أنس للنفوس إلا بإخراجها من الخفي إلى الجلي، وبإتيانها بالصرح
بعد المكني... وهكذا.

كما اعتمد النفي وسيلة لإثبات الفضل للمعانية واليقين عن طريق الاستشهاد بالأثرين: "ليس الخبرُ كالمُعانية"، و"لا الظنُّ كاليقين"، فالسلب هنا تسلط على مضمون الجملة، وهو مشابهة الخبر بالمعانية، والظن باليقين. ثم استخدام (لام التعليل) وسيلة استدلالية للوصول إلى النتيجة: "فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأُنس..."، وبلغنا تكرار اسم الإشارة (هذا) كاشفاً عن التسلسل المنطقي في الاستدلال، فبسبب ما ذكره من أدلة، يحصل الأُنس بسبب هذا العلم.

ويأتي القصر باقتباس شطر أبي تمام: "ما الحُبُّ إلَّا للحبيب الأوَّل" مضيئاً لبلاغة القصر الاستدلال بتقنيّة (التناص) لإثبات "ضرب آخر من الأُنس، وهو ما يوجبه تقدُّم الإلف".

(11)

وقد ينحو الاحتجاج منحى الشك فيما هو مظنون استقراره على حاله؛ مما يعني أننا إزاء خطاب احتمالي؛ "فقد تظن أنك أحكمت المسألة مع أن فيها جانباً غامضاً لم تلتفت إليه، أو علة مضمرة تقوم بها عليها الحجة، أو أن لها جانباً من البرهان والاستدلال لم ترض عقلك على فحصه وبحثه، وهكذا وهذه الكلمات من أجل ما يكتب في نقد المعرفة، ومنهج تمحيصها..."⁽²⁰⁾ يقول الجرجاني فيما عنونه الشيخ محمود شاكر: "ذكر المتفق عليه بيني عليه المختلف فيه".

"واعلم أن هذه الفصول التي قدّمتها وإن كانت قضايا لا يكاد يخالف فيها من به طَرُق، فإنه قد يُذكر الأمر المتفق عليه، ليُبنى عليه المختلف فيه،

هذا وربّ وفاقٍ من مُوافقٍ قد بقيت عليه زياداتٌ أغفلَ النظرَ فيها، وضروبٌ من التلخيص والتذهيب لم يبحث عن أوائلها وثوانيتها، وطريقةٌ في العبارة عن المغزى في تلك الموافقة لم يمهدّها، ودقيقةٌ في الكشف عن الحجة على مخالف -لو عرض- من المتكلفين لم يجدها...⁽²¹⁾

وقد اعتمد نقد المعرفة هنا على عدة منبهات أسلوبية عملت على زرع الشك فيما هو مطروق متداول، وهي: (إن الشرطية، وقد مع الفعل المضارع، وربّ التي تتردد بين التكثر والتقليل).

واللافت أيضًا أن الخطاب عمل على تأكيد هذا الشك منذ البداية بتسليط (أنّ، وإنّ) على (إنّ وقد): "واعلم أن هذه الفصول التي قدّمتها وإن كانت قضايًا لا يكاد يخالف فيها مَنْ به طُرُقٌ، فإنه قد يُذكر الأمر المتفق عليه، ليُبَيّن عليه المختلف فيه." وكذلك اسم الإشارة قبل ربّ: "هذا وربّ وفاقٍ من مُوافقٍ..."

وحين نتأمل قوله: "وطريقةٌ في العبارة عن المغزى في تلك الموافقة لم يمهدّها، ودقيقةٌ في الكشف عن الحجة على مخالف... لم يجدها".

نرى بصرًا عجيبيًا في الجمع بين اللغة والحجة في سياق واحد، فقصور التصور ينتج عنه إطلاق الكلام بما يخالف مقتضى الحال، ومن ثمّ تسقط الحجة، فيكون الموافق المتحدث عنه حينئذ كالصديق الذي والاك قلبه وعاداك فعله: "حتى تراه يطلق في عُرض كلامه ما يبرز به وفاقًا في مَعْرِض خلاف، ويعطيك إنكارًا وقد همّ باعتراف، وربّ صديق والاك قلبه، وعاداك فعله، فترك مكدودًا لا تشتفي من دائك بعلاج، وتبقى منه في سوء مزاج."⁽²²⁾

ومن براعة ما يمنحه الخطاب أن نستقي تشبيه هذا الموافق بالصديق من خلال تصدير كل منهما بالحرف (رب): "وَرَبِّ وَفَاقٍ مِنْ مُوَافِقٍ... وَرَبِّ صَدِيقٍ وَالْإِلاكَ قَلْبُهُ"؛ مما يمكننا أن نقول معه إننا بصدد نمط فريد من (التشبيه الضمني) إن لم يرد في تععيد البلاغيين، فقد ورد في قول شيخهم.

(12)

وإذا كان الخطاب الحجاجي عند الجرجاني في كل ما سبق عرضه كان نثرًا، فإنه قد جمع بين النثر والنظم الشعري في آخر ما كتبه، وهو المدخل في دلائل الإعجاز الذي وضعه الشيخ شاکر في مقدمة كتاب دلائل الإعجاز، وفيه يصرّح الجرجاني بأنه قد وصل "بأخرة إلى كلامٍ مَنْ أَصْغَى إِلَيْهِ وَتَدَبَّرَهُ تَدَبَّرَ ذِي دِينٍ وَفَتْوَةٍ، دَعَاهُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي وَضَعْنَاهُ، وَبَعَثَهُ عَلَى طَلَبِ مَا دُونَاهُ" (23).

والعجيب أنه يعقد في نهاية هذا المدخل مناظرة مع خصم مفترض، جاعلا من كتابه إجمالا الردّ المفهم على هذا الخصم؛ وبذلك يمهد الجرجاني لكتابه تمهيدًا يعدّ خير استدلال على تقنية الحجاج.

وبيان ذلك أنه بعد أن تحدث عن معاني النحو إجمالا، قال: "...ثم إننا نرى هذه كلّها موجودة في كلام العرب، ونرى العلم بها مشتركا بينهم.

وإذا كان ذلك كذلك، فما جوابنا لخصم يقول لنا: "إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم، موجودة على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي في منشور كلام العرب ومنظومه، ورأياناهم قد استعملوها

وتصرّفوا فيها وكمّلوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدّل ولا يختلف بها الحال...
فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب من
الرّصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوي
والقُدر، وقيّد الخواطر والفكر، حتى خرست الشّقاشق، وعدم نطق الناطق،
وحتى لم يجر لسان، ولم يبين بيان، ولم يساعد إيمان، ولم ينقدح لأحد منهم
زند، ولم يمض له حدّ، وحتى أسال الوادي عليهم عجزا، وأخذ منافذ القول
عليهم أخذا؟"

أبلىزنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نطبّ
لدائه، ونزيل الفساد عن رائه؟

فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب
الذي وضعناه، ويستقصي التأمّل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريق إلى البيان،
والكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحقّ وأخذ به، وإن رأى له طريقا غيره أوّما
لنا إليه، ودلّنا عليه، وهيهات ذلك!"(24)

في هذا الخطاب السابق ينصّ الجرجاني صراحة على الغرض من تأليفه
الكتاب، والهدف المنشود من ورائه، ولكنه أراد أن يبرز السؤال الذي يجيب عنه
الكتاب عبر بنية أصيلة في الحجاج وهي المناظرة، وقد حشد لهذه المناظرة عدة
أساليب متضافرة، فجمع بين الشرط والاستفهام، والنفي والإثبات أيضا.
فلاحظ أنه كان ينطلق من الشرط ليصل من خلاله إلى الاستفهام؛ لذلك كان
جوابا للشرط مرتين، وفي المرة الثالثة جاء تأكيدا للاستفهام الأول.

والحديث عن الاستفهام يجعلنا ننتبه إلى طبيعته الأسلوبية ابتداءً في كون حركة المعنى تتطلق فيه من الخارج إلى الداخل بعكس الأمر، وقد ورد لطلب التعيين في قوله: "فما جوابنا لخصم يقول...؟"، وعلى لسان الخصم في قوله: "فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية...؟" كما ورد لطلب التصديق في قوله: "أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله...؟"

ونلمح في الاستفهام الأخير التشكك في جواب الخصم حين جعل الاستفهام مسلطاً على الإلزام بجواب الخصم، وكأن فيه إغراءً للقارئ أن يكون هذا الأمر لازماً لمعرفته والغوص في أسرارهِ؛ لأنه متعلق بإعجاز القرآن الكريم، ويؤكد التشكك بالشرط الآتي بعده باستخدام الأداة (إن)، فقال: "فإن كان ذلك يلزمنا..."

وكانه بذلك يريد أن يسحب القارئ ويجزه للانتفاع من الكتاب، فجعل جواب الشرط الفعل (ينبغي) ولم يختار من بدائله الأسلوبية (يجب) حتى لا يكون الأمر واجباً، ويكون فيه محض الاختيار. ثم يكرر الأداة (إن) مرة أخرى مظهرًا المساواة بين الانتفاع بالكتاب وعدم الانتفاع به، فقال: "فإن علم أنه الطريق إلى البيان، والكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحق وأخذ به، وإن رأى له طريقاً غيره أوماً لنا إليه، ودلنا عليه..." ولكنه يدمر هذا الشرط الأخير بأن يعطف عليه اسم الفعل الدال على البعد: "وهيهات ذلك" ليختم به الفقرة؛ فيكون آخر ما يقف عنده القارئ، فيسقط في يديه دون حجة الجرجاني في هذا التحدي.

(13)

إني أقول مقالا لست أخفيه
 ما من سبيل إلى إثبات معجزة
 فما لنظم كلام أنت ناظمه
 اسم يرى وهو أصل للكلام، فما
 وآخر هو يعطيك الزيادة في
 تفسير ذلك: أن الأصل مبتدأ
 وفاعل مسند، فعل تقدمه،
 هذان أصلان، لا تأتيك فائدة
 وما يزيدك من بعد التمام، فما
 هذي قوانين تكفي من تشعبها،
 فلست تأتي إلى باب لتعلمه،
 هذا كذاك، وإن كان الذين ترى
 ثم الذي هو قصدي أن يقال لهم،
 نقول: من أين أن لا نظم يشبهه
 وقد علمنا بأن النظم ليس سوى
 لو نقب الأرض باغ غير ذاك له
 ما عاد إلا بخسر في تطلبه
 ونحن ما إن بثنا الفكر ننظر في
 كانت حقائق تلقى العلم مشتركا
 فليس معرفة من دون معرفة
 ترى تصرفهم في الكل مطردا
 فما الذي زاد في هذا الذي عرفوا
 قولوا، وإلا فأصغوا للبيان تروا

ولست أرهب خصما، إن بدا، فيه
 في النظم، إلا بما أصبحت أبعده
 معنى سوى حكم إعراب ترجيه
 يتم من دونه قصد لمنشيه
 ما أنت تثبته أو أنت تنفيه
 تلقى له خبرا من بعد تثنيه
 إليه، يكسبه وصفا ويعطيه
 من منطق لم يكونا من مبانيه
 سلطت فعلا عليه في تعديه
 ما يشبه البحر فيضا من نواحيه
 إلا انصرفت بعجز عن تقصيه
 يرون أن المدى دان لباغيه
 بما يجيب الفتى خصما يماريه
 وليس من منطق في ذاك يحكيه
 حكم من النحو نمضي في توحيه
 معنى، وصعد يعلو في ترقيه
 ولا رأى غير غي في تبغيه
 أحكامه ونروى في معانيه
 بها، وكلا تراه نافذا فيه
 في كل ما أنت من باب تسميه
 يجرونه باقتدار في مجاريه
 حتى غدا العجز يهمني سيل واديه
 كالصبح منبجا في عين رائيه

ونتوقف في الختام عند قصيدته النظمية التي نزع منها ما سيقّت إلا للاحتجاج بها بين يدي دلائل الإعجاز. يقول عبد القاهر:

وحين نقارب هذا النظم الشعريّ، نرى أنه ما سيق إلا للحجاج؛ ولذلك بدأ أول أبياته بجملة اسمية مؤكدة تجمع بين الإثبات والنفي معاً؛ إثبات قوله مقالاً في الإعجاز، ونفي إخفائه، ونفي الرهب من الخصم إن بدا فيه. ثم يؤكد عبر تقنية القصر البلاغية بأنه واضع هذا الفن:

ما من سبيل إلى إثبات معجزة في النظم، إلا بما أصبحت أبعده
ثم يعدد في تسعة أبيات مختصر أصول النظم وعلم النحو، ويعلّق عليها في أبيات ثلاثة بكونها قوانين عامة تكفي حال العجز عن التقصي.

ثم يستقل السياق الدلالي منذ البيت الثالث عشر حتى نهاية القصيدة للمحاورة الحجاجيّة مازجاً بين الاستفهام والشرط من ناحية، والشرط والنفي من ناحية أخرى لطرح المشكلة التي يجيب عنها الكتاب من خلال طرح سؤال الخصم، وبيان مقصد المؤلف من كتابه.

ثمّ الذي هو قصدي أن يقال لهم، بما يجيب الفتى خصماً يماريه
نقول: من أين أن لا نظم يشبهه وليس من منطق في ذاك يحكيه؟
وقد علمنا بأنّ النظم ليس سوى حكم من النحو نمضي في توحيه
فهو هنا يطرح المشكلة على لسان الخصم مستثمراً الاستفهام والنفي ليسأل بأي شيء كان نظم القرآن متفرداً رغم أن النظم واحد في اللغة وهو ليس إلا توحي معاني النحو في الكلام.

ثم يطنب في أنه لا معنى للنظم سوى ذلك من خلال الشرط والنفي:

لو نَقَب الأرض باغ غير ذاك له معنى، وصعد يعلو في ترقّيه
ما عاد إلّا بخسر في تطلّبه ولا رأى غير غي في تبغيه

ثم يعود في النهاية للاستفهام عن سرّ الإعجاز:

فما الذي زاد في هذا الذي عرفوا حتى غدا العجز يهمني سيل واديه
ويعقبه بالتحدي عبر أسلوب الأمر في الفعلين: (قولوا) و(أصغوا)،
ليكون الأول مطروحاً على الأجيال جميعاً بأن يفتشوا عن سر الإعجاز، ويأتي
الأمر الثاني مضيئاً تكويناً شرطياً في بنيته العميقة:

قولوا، وإلا فأصغوا للبيان تروا كالصّبح منبجاً في عين رائيه

وكأنه يمهدّ بذلك لكتابه عبر تركيب مفاده: إن تصغوا لمقالتي في
الإعجاز؛ تروا أموراً كالصّبح منبجاً في عين رائيه، ونراه يفرد الشطرة الثانية
بهذا التمثيل؛ ليكون آخر ما يستنهض به همة قارئه تمهيداً له قبل الولوج في
كتابه؛ لذلك كان الشيخ شاعر موقفاً في وضع هذا التمهيد في أول الكتاب؛ لأنه
ما أملاه إلا بعد الفراغ من كتابه، وكان حقيقاً بالجرجاني أن يختم تمهيده بعد
قصيدته السالفة بقوله: "الحمد لله وحده، وصلواته على رسوله محمد وآله" فمنها
المبتدأ وإليها المنتهى.

(14)

وبعد، فهذه دراسة تُعنى بأسلوب عبد القاهر الجرجاني من حيث هو
عبر تقنية (الحجاج) البلاغية، ولأن اللغة تنوب مناب الفكر؛ جاءت الدراسة
كاشفة عن فكره الحجاجي من خلال لغته وأسلوبه.

ويطول بنا المقام ويتسع لتتبع كل تجليات الحجاج في أسلوبه القويم، وبلاغته العالية، ولكننا نستطيع أن نطمئن -مما عرضناه- إلى أن الرجل قد وظّف الحجاج في كثير من بحوثه، توظيفاً مدعوماً بالاستدلال المنطقي والمذهب الكلامي.

ونستطيع في النهاية أن نقول بجلاء إن الحجاج له صيغه الخاصة التي لا تنحصر في نمط تعبيرى بعينه، وليست وفقاً على أداة أو تركيب دون سواه، إنما يطوّف بين عدة ظواهر بلاغية وأسلوبية كالشرط، والقصر، والتوكيد، والنفي، والاستفهام... إلى غير ذلك من الأساليب التي قد تأتي على هيئتها التي نص عليها النحاة والبلاغيون في تفعيمهم، وقد ترد بفحواها عبر الصيغ والتراكيب المؤدية لمعناها، فضلاً عن اتخاذ هيئة المناظرة مع الخصوم في بعض الأحيان باعتبارها ذات سمتٍ تداوليٍّ أصيلٍ في الخطاب الحجاجي.

وعلى أي حال، فإن هذه الدراسة محاولة -أحسبها جديدة في طرحها- لدراسة بلاغة النظم عند صاحب نظرية النظم. وأخيراً أترك للقارئ اللبيب هذا السؤال الحامل لإجابته معه:

إذا كان مفتاح أي كتاب هو عنوانه، وأنه بمثابة المبتدأ، والكتاب خبره؛ ألا ترى أن العناوين (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والرسالة الشافية في الإعجاز) ذات صبغة حجاجية، وشيأت برهانية لكل ذي بصر بالعربية؟!

المصادر والمراجع

- ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، تحقيق حفني شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1995.
- أحمد مطلوب:
- معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2001م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2007م.
- توماس أ. سلوان: موسوعة البلاغة، ترجمة: نخبة، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م.
- عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، ط12، 1995.
- عبد القاهر الجرجاني:
- الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز، ملحقة بكتاب دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، القاهرة وجدة، ط3، 1992م.
- كتاب أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة وجدة، ط1، 1991م.
- كتاب دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة وجدة، ط3، 1992م.

- علي عشري زايد: البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، مكتبة الآداب، ط5، 2006م.
- د. فاضل صالح السامرائي: معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط2، 2002م.
- مجمع اللغة العربية: معجم مصطلحات الأدب، القاهرة، 2014م.
- د. محمد عبد المطلب:
- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط1، 1995.
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط1، 1995م.
- المسيرة البينية للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2018م.
- د. محمد محمد أبو موسى:
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، ط2، 2010م.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة وهبة، ط2، 2008م.

الهوامش

- (1) د. محمد محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، ط2، 2010م، ص52.
- (2) توماس أ. سلوان: موسوعة البلاغة، ترجمة: نخبة، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م، ج1، ص145.
- (3) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص27.
- (4) د. محمد عبد المطلب: المسيرة البينية للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2018م، ص211.
- (5) ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التعبير، تحقيق حفني شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1995، ص119. وانظر مصطلح الاحتجاج النظري في معجمي الدكتور أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2001م، ص46؛ ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2007م، ص36؛ 40.
- (6) مجمع اللغة العربية: معجم مصطلحات الأدب، القاهرة، 2014م، 2/ 70.
- (7) على عشري زايد: البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، مكتبة الآداب، ط5، 2006م، ص85.
- (8) د. محمد عبد المطلب: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط1، 1995، ص174.
- (9) عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، ط12، 1995، 1/ 419. وانظر في أسباب العدول عن المصدر الصريح إلى المؤول المرجع السابق: 1/ 417 و 418، ود. فاضل صالح السامرائي: معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط2، 2002، 3/ 127 وما بعدها.
- (10) كتاب دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة وجدة، ط3، 1992م، ص41، و42.
- (11) السابق، ص34.

- (12) د. محمد محمد أبو موسى: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة وهبة، ط2، 2008م، ص32.
- (13) دلائل الإعجاز، ص260، و261.
- (14) الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز، ملحقة بكتاب دلائل الإعجاز، ص587، و588.
- (15) دلائل الإعجاز، ص141.
- (16) السابق، ص267.
- (17) دلائل الإعجاز، ص5: 9.
- (18) كتاب أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة وجدة، ط1، 1991م، ص121، و122.
- (19) د. محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط1، 1995م، ص246، و247.
- (20) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص147.
- (21) أسرار البلاغة، ص25.
- (22) السابق، الصفحة نفسها.
- (23) دلائل الإعجاز، ص3، و4.
- (24) (السابق، ص8، و9.